

الْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ

الحمدُ لله ربَّ العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين ،
وفيوم السماوات والأرضين ، وخالق الخلق أجمعين ، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، وأمينه على
وحيه ، ومبلِّغ الناس شرعه ، ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه ، ولا شرًّا إلا حذرهما منه ؛ فصلوات الله وسلامه
وبركاته عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أَمَّا بَعْدُ معاشِر الكرام : الحديث في هذه الليلة التي أسأل الله عز وجل أن يجعلها ليلة مباركة علينا أجمعين ، وأن يوقفنا جل في علاه لما يحبّه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يجعل ما نقول ونسمع حجةً لنا لا حجة علينا ، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ؛ إنه تبارك وتعالى ولي التوفيق والسداد لا شريك له .

الحديث معاشر الكرام في هذه الليلة عنوانه «الْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ» ؛ والوصية بالنساء يعُدُّ هذا الموضوع جانباً من جوانب جمال هذه الشريعة وحُسْنُها التي جاءت كاملةً مكَمَّلةً لمصالح العباد وجميع أمورهم محققةً لهم الخيرية في كل جوانب حياتهم وجميع شؤونهم وأحوالهم وأمورهم ؛ هذه الشريعة السمحة المباركة القائمة على الرحمة والرفقة والإحسان والتكاتف والتآزر والتعاون على البر والتقوى إلى غير ذلك من المعاني العظيمة والأخلاق المباركة والآداب الرفيعة والمعاملات الطيبة التي جاءت بها هذه الشريعة المباركة شريعة الإسلام ، وهي شريعةٌ كلها محاسن وكلها جمال ، ليس فيها إلا دعوة إلى خيرٍ وفضيلة أو نهي عن شرٍّ ورذيلة ؛ فإن هذه الشريعة المباركة ما دعت إلى شيء فقال ذو عقلٍ سليم ليتها لم تدعُ إليه ، ولا نحت عن شيء فقال ذو عقلٍ سديد ليتها لم تنه عنه ؛ فهي شريعة مباركة ، شريعة كاملة ، شريعة سمحة ، شريعة كلها محاسن . والحديث عن الوصية بالنساء هو نوع من الإظهار لحسن هذه الشريعة وكماها .

ومن ينظر إلى تاريخ المرأة قبل الإسلام يرى تاريخاً مظلماً يكتنفه كل جورٍ وظلمٍ وبغيٍّ وتعسفٍ في حق المرأة وهضمٍ لحقوقها واعتداءٍ عليها وامتethان لشخصها ، بل إنها كانت معدودةً من سقط المتاع تُشتري وتُباع ، وكان التعامل معها تعاملًا لا يسلم من الإهانة لها والخط من قدرها والهضم لحقوقها والعدوان عليها . وكان من حال الناس قبل الإسلام مع المرأة الكراهية الشديدة لها ، وهذا أمرٌ ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم في قرآن قال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ ﴾ (تَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْكُهُ عَلَيْهِ هُونٌ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ٥٩) [النحل: 58-59] ؛ كانت حالهم هذه مع المرأة ، بل بلغ الحال إلى ما هو أشد من

ذلك ألا وهو : أن الواحد منهم إذا بُشِّرَ بمولودة أنثى لم يُيقها في الحياة لحظة واحدة بل يئدها أي يدفنها في التراب وهي حية ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8-9] ، وكان من شدة كراهية بعضهم للأنثى وتغلغل هذه الكراهية في صدورهم أن يحفر حفرة قريبة من مكان زوجه في حال طلقها وولادتها ؛ فإذا ما خرج المولود نظر فوراً هل هو ذكر أو أنثى ؟ فإذا كان أنثى أدخله في تلك الحفرة وأهال عليه التراب فلا يبقى لحظة واحدة من شدة هذه الكراهية ، وبعضهم ربما صبر -وهذا ذكره أهل العلم في كتب الأخبار- بعضهم ربما صبر حتى تكبر هذه الأنثى على الخامسة أو السادسة من عمرها ثم يقول لزوجها طيبها جمليها ثم يأخذها كأنه أخذها لفسحة أو نزهة وقد هيا لها حفرة ثم إذا دنت من الحفرة قال انظري فإذا نظرت دفعها من ورائها وأهال عليها التراب .

كانت حالة شديدة في الظلم والعدوان على المرأة حال صغرها وأيضاً حال كبرها ؛ فلا نصيب لها من ميراث ولا حظ لها فيه ، بل هي نفسها معدودة في سقط المتاع ، ولا نصيب لها في صداق ولا حظ لها فيه ، وكانت تعامل بمعاملة كلها غلظة وشدة ؛ فجاء هذا الإسلام المبارك جاء هذا الإسلام العظيم فأعطى كل ذي حق حقه وحفظ لكل ذي حق حقه وأعطى للمرأة حقها في كل اعتباراتها حال كونها أمّاً أو أختاً أو عمّة أو خالة أو أيضاً أرملة وليست بقريبة أعطى كلاً حقه ، ولهذا جاءت الأحاديث الكثيرة مكرمةً للمرأة وجاءت موصيةً بها خيراً ، بل كانت وصية نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام بالمرأة وصية متكرر إلى آخر لحظة من حياته وهو صلوات الله وسلامه عليه يوصي بالنساء خيراً ((اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ)) .

والمرأة في طبعها ضعيفة والرجل أقوى منها ، وكثير من الرجال يستغل قوته بطشاً في المرأة وعدواناً عليها وظلماً لها؛ فجاء الإسلام بمنع ذلك كله ، جاء بالرأفة بالمرأة والإحسان إليها ، والمعاشرة لها بالمعروف والوصية بها خيراً ، والحد من ظلمها والتعدي عليها لا في نفسها ولا في شرفها ولا في مالها ولا في أي شيء من حقوقها . وهذا بابٌ واسع عندما يتأمل المتأمل ويتبصّر المتبصر في نصوص الشريعة وأدلة الكتاب والسنة فيما يتعلق بالوصية بالمرأة وحقوق المرأة والتعامل معها يجد نصوصاً كثيرة جداً في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ منها نصوص فيما هو أمرٌ مشترك بين الرجال والنساء ، ومنها نصوص كثيرة جداً جاءت خاصة بالمرأة في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

ومن لطيف ما يُذكر وجميل ما يُشار إليه في هذا المقام : أن العالم الجليل صديق حسن خان وكان زوجاً لملكة بهوبال وكانت امرأة صالحة فطلبت منه أن يجمع من نصوص الكتاب والسنة ما يتعلق بالمرأة خاصة من آيات كتاب الله عز وجل وسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ؛ فجمع كتاباً لطيفاً جميلاً حسن الفائدة سماه «حُسن الأسوة فيما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم في النسوة»؛ كتاب خاص أفرده بذلك بدأه بآيات الكتاب العزيز آيةً تلو الآية ويُتبع كل آية بتفسيرها وبيان معانيها ثم جمع الأحاديث عن رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بالنسوة ، وهو كتاب مفيد ويجدر بالمرأة أن تقف على هذا الكتاب وأن تستفيد من المضامين العظيمة والفوائد الثمينة التي حواها هذا الكتاب فيما يتعلق بالمرأة .

والحديث عن وصية الإسلام بالمرأة من خلال آيات الكتاب العزيز وسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه حديثٌ واسع كما أشرت ، وحتى لا يتشعب بنا الحديث ويطول بنا المجلس سيكون الحديث عن وصية الإسلام بالمرأة مقتصرًا على ما ساقه الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه العظيم الشهير كتاب «رياض الصالحين» .

وقد بدأ رحمه الله تعالى تلك النصوص بقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19] ، وهذه المعاشرة هي وصية من الله تبارك وتعالى لعموم الرجال مع النساء ؛ أن تكون معاشرة للمرأة بالمعروف قولًا وفعلاً ؛ قولاً: بالكلمات الطيبة والألفاظ الحسنة والأقوال اللطيفة ، وفعلاً : بالمعاملة الكريمة الحسنة التي لا فظاظاة فيها ولا غلظة ولا عنف فيها ولا شدة .

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف هنا في كل مقام بحسبه من حيث النفقة ومن حيث السكنى ونحو ذلك من الحقوق التي تتعلق بالمرأة ؛ فهو في كل زمان ومكان بحسبه مما يليق من مثله لمثلها ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: 7] ، فالمعروف في كل مقام بحسبه ؛ بحسب حال الرجل وبحسب حال المرأة وبحسب حال المكان وبحسب حال الزمان ، ومطلوبٌ في هذا المقام أن يكون معاشرًا للمرأة معاشرة لطيفة طيبة قائمة على المعروف والإحسان والمعاملة الطيبة الكريمة .

ثم أورد الإمام النووي رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء : 129] ؛ وهذا حكم مختص فيمن كان معدداً من الأزواج ، وأن الواجب عليه أن يكون عدلاً في معاملته لأزواجه منصفاً غير ظالم ، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ أي لا تميل -والخطاب لمن كان معدداً- لزوجةٍ على حساب الأخرى ﴿فَتَدْرُوهَا﴾ أي من ملتم عنها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ والمعلقة هي التي لا قرار لها كالتى بين السماء والأرض لا تجد طمأنينة ولا راحة ولا سعادة لأنها معلقة ، ليست مطلقة فتتحرى زوجها آخر ينصفها ، وليست أيضاً زوجة معاملةً معاملة الزوجة بل هي معلقة بين الزواج والطلاق ، وهذا ظلم للمرأة جاء الإسلام بالنهي عنه والتحذير منه ، فكان من جملة بالوصية بالنساء التي جاءت بها الشريعة أن تكون معاملة قائمة على العدل ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾

﴿وَإِنْ تَصَلُّوا فَانِ الْكَانَ غُفُورًا رَحِيمًا﴾ وختم الآية بذلك بالمغفرة والرحمة دليل على أن من كان متحريرا للعدل قائما في تعامله مع نسائه بالإنصاف حري بالفوز بمغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته جل في علاه .

ثم ساق رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث بدأها بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا)) و«خيرًا» جاءت نكرة في هذا السياق سياق الأمر بالوصية بالنساء فتفيد العموم ، «خيرًا» : أي بكل معاني الخيرية المستطاعة القولية والفعلية .

وقوله عليه الصلاة والسلام «اسْتَوْصُوا» أي ليكن هذا الأمر وصية دائمة بينكم ، لم يقل "أوصيكم بالنساء" قال ((اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ)) فهذا يتضمن وصيته هو عليه الصلاة والسلام بالنساء ، ويتضمن أيضًا الحث على أن تكون هذه وصية دائمة بين المسلمين يوصي بعضهم بعضا بالنساء خيرا بحيث تكون هذه وصية . ((اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا)) أي ليوصي بعضكم بعضا بالنساء خيرا . وتؤكد هذه الوصية عندما يعلم من حال شخص مع نسائه وأهله غلظة وشدة ؛ فإن مثل هذا ينبغي أن يوصى خيرا بالنساء وأن يُذكر بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يمضي في حياته مع نسائه وأهله بمعاملة قائمة على الظلم والجور والعدوان .

قال : ((اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ)) ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ

□ قيل إن ذلك حقيقة وأنها خلقت من ضلع آدم أي أم بنيه حواء خلقت من ضلع آدم ، وأعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ وهو منبت الضلع من البدن يكون فيه اعوجاج شديد ، ولو أراد أحد أن يقيم هذا الاعوجاج لانكسر .

□ وقيل إن ذلك على وجه التشبيه لها يعني أنها خلقت وطبيعة المرأة فيها شيء من العوج ، ولهذا جاء في بعض الروايات كما سيأتي فيما ساقه ((المرأة كالضلع)) .

فقيل إنها خلقت من الضلع نفسه ، وقيل إن ذلك على وجه التشبيه لها من حيث أن المرأة في طبعها اعوجاج قائم فيها طبعًا وجبلةً.

قال : ((فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ؛ فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكَتْهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ)) إذا ينبغي أن تُفهم المرأة على هذه الطبيعة وأن هذه حال المرأة حتى لو كانت كما يقال مثقفة أو متعلمة أو غير ذلك لا تسلم من هذا العوج ، وينبغي على الأزواج أن يتعاملوا مع الزوجات مراعين هذه الحالة وهذه الطبيعة التي في المرأة والتي لا تسلم منها .

وأذكر في هذا المقام كلمة جميلة للإمام ابن باز ورحمة الله عليه ؛ كنت مع بعض الإخوة في زيارة له في بيته في الطائف بعد صلاة الفجر وكنا في مجلسه فاتصل به متصل وأظنه من الشباب لأني أسمع الشيخ يقول له "يا ابني"

ويكررها ، وكان قد طلق زوجته فسمعت الشيخ رحمه الله عليه وهو يهاتف الشاب ويناصحه قال كلمة جميلة كررها مرات قال له : "يا بني الدنيا ما فيها حور ، الدنيا ما فيها حور عين" يكررها رحمة الله عليه ، يعني أي امرأة لابد أن يكون فيها نقص لا تسلم من ذلك .

قال : ((**فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ؛ فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ**)) إذا معنى ذلك يبقى الرجل مستمتعا بأهله في حياة كريمة طيبة وما يبدر من بعض التقصير أو بعض التفريط يحاول معالجته برفق ولطف وحلم وأناة لا بفظاظة وشدة وغلظة ربما يترتب عليها انفصام أو بعد عن الحياة الآمنة الطيبة الكريمة . والرجل ينبغي أن يكون حكيماً في هذا المقام ، لا يعني ذلك أن يُترك الأمر وتُفعل ما شئت وإنما ينبغي أن تكون المعالجة بالرفق واللطف والمعاملة الطيبة الكريمة .

قال وفي رواية في الصحيحين : ((**الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ ؛ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسْرَتَهَا**)) يعني إذا كان الرجل في بيته يريد أن تكون المرأة فيما يريد منها من أمور وأعمال وتعامل ونحو ذلك مئة بالمئة لا ينقص رقماً عن المئة فيما يريد منه ، إن كان يريد بها هذه الصفة كسرهما لأنه لن يجد ولن يتحقق له مثل ذلك . ((**إِنْ أَقَمْتَهَا**)) يعني إن أردت أن تكون كاملة بكل ما تريد وبكل المعاني التي تطلب كَسْرَتَهَا .

((**وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا ، اسْتَمْتَعَتْ وَفِيهَا عَوَجٌ**)) وهذا فيه تنبيه إلى أن الرجل ينبغي أن يكون فيه شيء من الاحتمال للمرة وأخلاقها وبعض التقصير الذي يكون عندها وسيأتي معنا فيما ساقه من نصوص ما يعين بإذن الله سبحانه وتعالى على تحقيق هذا المطلب .

قال : وفي رواية لمسلم : ((**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ**)) يعني مهما اجتهدت لا يمكن أن تكون المرأة لك مستقيمة على طريقة واحدة مئة بالمئة كما يقال ، لابد أن يكون منها شيء من التقصير حتى لو كانت امرأة متعلمة أو مثقفة أو نحو ذلك لابد أن يكون شيء من هذا التقصير .

((**لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسْرَتَهَا ، وَكُسْرُهَا طَلَاقُهَا**)) وكثير من المتسرعين يبادر إلى هذا الكسر الذي هو الطلاق ، وكثير منهم يبادر إليه عند أتفه الأمور وأقل الأشياء ؛ وهذا من ضعف في هؤلاء الرجال وعدم تحقق معاني الإحسان واللطف التي تتحقق بها الحياة الزوجية الكريمة . فبعضهم ربما طلق عند نوع من الطبخ أو نوع من الغسيل أو نوع من الترتيب للبيت أو نوع من الترتيب لنفسها أو نحو ذلك ، كسرهما طلاقها ، بينما الحق في هذا المقام أن يعمل على المعالجة باحتمال وصبر وأناة ورفق وطول نفس مع المرأة ؛ وتزین الأمور شيئاً فشيئاً بإذن الله سبحانه وتعالى .

قال النووي رحمه الله : قوله ((**عَوَجٌ**)) هُوَ بفتح العين والواو ؛ هكذا ضُبُطت هذه اللفظة في بعض المصادر الحديثية «عوج» ، وضُبُطت في مصادر أخرى أيضاً بكسر العين «عوج» وقال النووي نفسه رحمه الله تعالى في شرحه لصحيح مسلم «وهو الأكثر» ، ويقال إن العوج هذه اللفظة تكون فيما يتعلق بالأبدان ، والعوج فيما

يتعلق بالأخلاق والمعاني ، فيقال مثلا رجله فيها عَوَج لا يقال عَوَج ، ويقال أخلاقه فيها عَوَج بكسر العين ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف:1] بكسر العين، ولهذا الأقرب أن ضبط هذه الكلمة بالكسر وهو قول الأكثر كما قال النووي رحمه الله تعالى «وفيها عَوَج» لأن المراد بالعوج هنا ليس في البدن نفسه وإنما في التعامل والمعاني والأخلاق التي في المرأة .

قال رحمه الله وعن عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله عنه : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ ، وَذَكَرَ النَّافَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا أَي ناقة صالح عليه السلام والذي عقرها أي أشقى قومه ﴿ إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس:12] ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ)) قال : «وَالْعَارِمُ» بالعين المهملة والراء : هُوَ الشَّرِيرُ الْمَفْسِدُ ، وقوله «أَنْبَعَثَ» أي : قَامَ بسرعة .

قال : ((ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ -وهذا موضع الشاهد- فَوَعِظَ فِيهِنَّ)) ؛ وعظ: أي الرجال ، فيهن: أي النساء أي خيرا .

فَقَالَ : ((يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ أَي أَيُّهَا الرِّجَالُ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ)) أي مستغلاً قوته وقدرته وعافيه وصحته وضعف المرأة ((فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ)) أي أن هذا تناقض في المعاشرة والحياة الزوجية ؛ كيف يجلدُها في أول النهار ثم يضاجعها مستمتعا في آخر النهار هذا تناقض في المعاشرة ، وإذا كانت متاعاً للرجل وأنساً له وحياته معها قائمة على الرأفة والرحمة كيف يليق بها أن يجلدُها جلد العبد ؛ أي يضربها الضرب الشديد القاسي ، وربما بعضهم بضربه لها عند خطئ معين كسر عظما أو أوجد جرحا أو أفقد أيضا عينا أو كسر سنا ؛ وهذا يحصل . أذكر مما قرأته في بعض الفتاوى التي قُدِّمت لبعض أهل العلم أحد الأشخاص يستفتي أنه غضب من امرأته غضباً وفي حال غضبه عليها أعطاهها ضربة شديدة بجمع يده على فمها فكسر أسناتها في حال غضبته ، ثم أيضا صدرت منه أمور وأخذ يستفتي أهل العلم ؛ يستفتي من جهة ويذهب بها أيضا إلى المستشفيات ليعالجها من جهة أخرى . فهذه الشدة والغلظة في التعامل مع النساء والبطش والضرب هذا الشريعة جاءت بمنعه والتحذير منه ، وإذا كان قويا قادرا على مثل هذا التعامل مع المرأة فالله أقوى منه ، فإذا نظر إلى قوته وقدرته على هذه المرأة فليُنظر إلى قوة الله وقدرته سبحانه وتعالى عليه وليتق الله عز وجل ، ومما يعينه على فهم ذلك أن مثل هذا التعامل لو كان لبنته من زوجها لم يرضَ ولم يقبله ، ولو جاءت ابنته إليه وقالت إن زوجي فعل كذا وكذا لآلمه أشد الألم واستنكر ذلك أشد الاستنكار .

قال ((يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ)) أي أن هذا تناقض في الحياة وأن المطلوب في الحياة الزوجية أن تكون قائمة على الرحمة والرفق ومعالجة الأخطاء بالتواضع التي هي أحسن .

قال : ((ثُمَّ وَعَظَهُمْ -صلوات الله وسلامه عليه- فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الصَّرْطَةِ ؛ قَالَ : لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ؟!)) يعني هذا الذي يضحك الإنسان منه إذا سمعه هو يصدر من كل إنسان ولا يخلو أو يسلم إنسان من ذلك ؛ فنهى عن ذلك عليه الصلاة والسلام وذكر أن هذا أمر لا يسلم منه كل إنسان ؛ فلم يضحك الإنسان من شيء هو يفعله وشيء هو يقع منه!!

وهذا أيضا من الأدب العظيم الذي جاءت به الشريعة ، لأن بعض الناس وهذا ينبغي حقيقة أن ينتبه له ، بعض الناس قد يكون مثلاً معه شيء من الضعف في امتلاك المخرج مخرج الهواء ، فربما خرج منه عن غير تعمد ، ومن الناس من هو مصاب بسلس الريح ، فمن عافاه الله سبحانه وتعالى وأمدّه فليحمد الله على العافية ، وإذا صدر شيء من ذلك لا يضحك من أخيه وكيف يضحك من شيء هو نفسه يقع منه ! لكن يفترق عن هذا أنه يملك نفسه وهذا ضعيف لم يتمكن أو في مثلاً حال غفلة أو شيء من هذا القبيل ، فلا ينبغي للإنسان أن يضحك في هذا المقام من شيء هو يفعله كما قال نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ)) ، أَوْ قَالَ : ((غَيْرُهُ)) رواه مسلم . هذا الحديث عظيم جدا ، وإضافة إلى أنه عظيم هو في الحقيقة مريح جدا في الحياة الزوجية ، والله من يوفقه الله سبحانه وتعالى للعمل بهذا الحديث يرتاح ويزول عنه كثير من القلق والاضطراب الذي يكون في كثير من البيوتات .

قال: ((لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً)) أي لا يبغض ويكره ولا تكون الحياة قائمة على الشئان والبغضاء ((لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً)) كأنه قيل ما الذي يعينني على ذلك؟

قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ)) هنا يأتي ميزان جميل في التعامل ؛ إذا كان الرجل في تعامله مع زوجته لا ينظر أبداً إلا إلى الأخطاء ولا يستحضر في ذهنه إلا الأخطاء سيتولد من هذا النوع من النظر كراهية للمرأة وبغضاء لها لأنه لا يستحضر أصلاً إلا الأخطاء ، بينما اللائق في هذا المقام أنه إذا حصل خطأ يأتي مباشرة ويذكر نفسه ويقول "هذه التي أخطأت الآن وحصل منها كيت وكيت هي التي فعلت كذا وهي التي فعلت كذا" ويعدد في نفسه وفي ذهنه المحاسن التي في هذه المرأة ، فإذا عدّد المحاسن واستحضرها زال عن نفسه ما قام فيها من كراهية أو بغضاء أو نفرة من هذه المرأة ، وربما حضر الشيطان في هذا المقام وأخذ يذكر الزوج بالأخطاء فقط وأنها حصل منها كيت وكيت الخ ، فإذا بقي الزوج لا يتذكر إلا أخطاء المرأة أبغضها أشد البغض ونفر منها أشد النفرة ، بينما إذا تعامل بهذا بهذا التوازن حقق ذلك حياة جميلة بينه وبين زوجته ((لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى عن عمرو بن الأحوص الجُشَمي رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعظَ ثُمَّ قَالَ : ((أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ)) ومعنى «عوان» أي أسيرات في حكم الأسير ، جمع عانية وهي الأسيرة ، ((فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ)) أي هي في حكم الأسير بمثابة الأسير امرأة ضعيفة خرجت من بيت أهلها وصارت في بيتك وأصبحت ولايتها لك وأمرها بيدك لا تفعل إلا بإذنك ، فهي بمثابة الأسير ؛ وهذا حث على حسن التعامل مع المرأة والرعاية لها وحسن الوصية بها والمعاملة معها بالمعاملة الخيرة الفاضلة الكريمة .

((فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ)) أي لكم عليهن حقوق جاءت بها الشريعة لا تملكون منهن غير ذلك ، فلا يتعدى المرء حدود شرع الله سبحانه وتعالى .

((إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)) والمراد بالفاحشة أي فيما يتعلق بحق الزوج من طوعية وامتنال ، لا أن المراد بالفاحشة الزنا ، المراد بالفاحشة هنا : أي فيما يتعلق بحق الزوج ، فإن أتت بفاحشة أي في تعاملها مع الزوج وفحشها في ألفاظها وأفعالها وكلماتها وعدم طواعيتها له ، فإذا حصل شيء من ذلك وأصبحت امرأة سيئة في التعامل مع الزوج وسيئة في القيام بحقوق الزوج ((فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ)) أي غير شديد ، ضربا لا يكسر عظما ولا يترتب عليه خروج دم أو نحو ذلك وإنما ضرب تأديب وتربية لا ضرب بطش وظلم وعدوان ، ولا يصار إلى هذا الضرب ابتداء وإنما ثمة أمور قبله ؛ أولا يعظها وينصحها ويذكرها بالله "اتق الله يا فلانة خافي الله" إن لم ينفع الوعظ يهجرها في المضاجع ، والهجر في المضاجع أيضا تكون المسألة ملمومة ليس هجرا في البيات يخرج إلى مكان آخر ويقول أنا بيني وبين زوجتي خصومة ويعلم الأمر الذي بينهم على الملأ ، وإنما هجر في المضاجع ، يعني لا ينام معها في الفراش وإنما يكون في مكان آخر من البيت وتكون القضية ملمومة بينهم ((فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ)) أي ضربا غير شديد ولا عنيف .

((فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا))؛ قوله «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ» دليل على أن قوله في أول الحديث ((إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ)) أي عدم الطاعة والتعامل مع الزوج بمعاملة فيها شيء من الفحش وعدم الطوعية .

قال : ((أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا)) وهذا أيضا ينبغي أن يعلمه كل من الطرفين . ((لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ؛ فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ)) لأن البيت بيت الزوج والأحقية فيه له ، فإذا كان لا يأذن في أن يدخل إلى بيته فلان أو فلان لا يأذن بذلك حفاظاً على بيته فالحق له لأن البيت بيته والأمر له ، ولا سيما إذا علم مثلا من بعض النساء أنها امرأة مفسدة ونمامة حتى لو كانت من قرابات تلك المرأة يعلم من حالها أنها مفسدة ونمامة ويرى أنها إذا دخلت عليه في بيته أفسدت بينه وبين أهله ووجد من بعد زيارتها معاملات سيئة وغضاضة ونحو ذلك

فمنع قال لها "لا تزورك فلانة ولا أرغب في زيارتها مثلا ولا تسمح لي لها بأن تدخل، أو إذا اتصلت لا تكلمها" حفاظا على زوجها وعلى بيته وعلى حاله ، إذا كان يعلم من حال امرأة معينة أن فيها فسقا أو فيها نميمة أو فيها غيبة أو فيها شرا على أهله ونحو ذلك فالأمر له ((لا يُوطِنَ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنُ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ)) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

قال : ((وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟)) انظر هذا السؤال ما أجمله هذا صحابي جليل ، والصحابة رضي الله عنهم عندما يسألون لا يسألون لمجرد العلم وإنما يسألون للتطبيق والعمل ؛ فهذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه يقول «مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟»، كثير من الناس في هذا المقام سؤاله "ما حقي على زوجتي؟" ، كثير من الناس لا يسأل إلا هذا السؤال ما حقي على زوجتي؟ ، لكن انظر هذا الارتقاء بالأخلاق .

يقول رضي الله عنه «مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟» قَالَ : ((أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ ، وَلَا تُقَبِّحَ ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ)) هذه حقوق للمرأة واجبة ، يقول عليه الصلاة والسلام ((تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ)) أي تطعمها من حال ما تطعم ومن جنس ما تطعم ، وتكسوها أيضا بما يتناسب مع ما تكسو به نفسك ، لا يعطيها مثلا إذا كان غنيا الرث من اللباس ويلبس الفاخر ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: 7] .

((وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ)) يعني إذا احتاج إلى أن يؤدب أهله وبلغ الأمر إلى أنه لا بد من الضرب فليحذر أن يضرب الوجه ؛ لشرف الوجه هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن الوجه فيه الحواس ربما ضربة على الوجه تعطل حاسة السمع أو تعطل مثلا حاسة البصر ، إضافة إلى ما في الضرب على الوجه من إهانة شديدة ، وغالبا الضرب تتحرك اليد فيه إلى الوجه لأن غالبا الغضب يأتي من جهة الوجه تكون تكلمه ومثلا ترد عليه والشيء الذي يزعجه يصدر من فمها فغالبا الضرب يتجه إلى الوجه ؛ فحذر من ذلك عليه الصلاة والسلام مهما كان الخطأ الذي يكون من المرأة لا يجوز للرجل أن يضربها على وجهها لا لطما ولا بجمع يده ولا بآلة ولا بغير ذلك .

قال : ((وَلَا تُقَبِّحَ)) يعني لا يقبح لا في الأقوال ولا في المعاني، لا تقبح يعني لا يقل مثلا قبحك الله أو يا قبيحة أو أنت من بيت قبيح أو مثل هذا الكلام ، أو ما شابه ذلك من المعاني يا رذيلة يادنيئة يا حقيرة يا سافلة مثل هذه الألفاظ هذا كله لا يجوز بل يجب على الإنسان وأن يحذر وأن يصون لسانه من مثل هذه الكلمات .

قال : ((وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ)) عندما يكون المهجر في البيت تكون القضية ملمومة ما تكون المشكلة التي في البيت منتشرة في الناس وفي المجتمع وإنما تكون القضية ملمومة ، لأنها إذا انتشرت الرجوع يكون في النفس منه شيء ، التراجع يكون في النفس منه شيء وتدخل أطراف ربما تزيد الأمر شدةً ، لكن إذا حرص الإنسان على أن الأمر يكون في البيت وأن القضية تكون ملمومة في البيت هذا أهون وأدعى لدوام الوئام ودوام العشرة والمحبة .

قال : وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) ، وجاء أيضا في بعض الأحاديث قال : ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي)) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

أذكر هنا في هذا المقام طرفة فيها فائدة ؛ يقولون أن نفرا كانت تجمعهم وظيفة في عمل واحد في مكتب واحد سنوات ، وكان من بينهم شخص كان من أميزهم خلقا وأجملهم تعاملًا ، ثم إنهم من بعد سنوات في هذا العمل تشاوروا أن يعملوا مائدة يجتمعون فيها هم والزوجات والأولاد النساء على حدة والرجال على حدة حتى يحصل تعارف ، فلما حصل ذلك الاجتماع كل من التقى بزوجة ذلك الخلق يهنئها أنت زوجة فلان ؟ هنيئا لك ما شاء الله والله يمدحون أخلاقه ، كل من حدثها وهنأها بأخلاقه تستغرب تقول "فلان! والله عجيب غريب هذا سبحانه الله فلان زوجي!! والله غريب سبحانه الله " . يعني هذا الشيء الذي يُمدح به ومعروف بين زملائه ما رأت منه شيء قط في تعامله معها ، فهو كان مع زملائه في خلق راقى وتعامل كريم وإذا رجع إلى البيت لم يعاملها إلا المعاملة السيئة ؛ فانظر الفرق الشاسع لمثل هذه المعاملة وما يدعو إليه الإسلام ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) .

والبيت يعتبر محك في الأخلاق ، لأن الإنسان يخرج لملاقة الناس مهينًا نفسه للتعامل ويرتب كلامه ، لكن إذا رجع إلى البيت رجع للراحة ويتخلى غالب كثير من الناس عن الأخلاق في تعامله مع أهله فيبدأ يرفع الصوت ويبدأ يشتد في العبارة ويقسو في التعامل وأشياء من هذا القبيل وإذا أراد أن يخرج رتب نفسه ورتب كلماته ورتب تعاملاته مع الإخوان وإذا رجع إلى البيت عاد كما كان في حالته في شدته وغلظته ؛ وهذا ليس من هدي الإسلام، يقول عليه الصلاة والسلام ((وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) .

قال : وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ - أي النساء - فجاء عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ذَرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ)) قال معنى «ذَرْنِ» أي : تَجَرَّأَنَّ ((فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ)) يعني لما منع من الضرب مطلقا تجرأ بعض النساء على أزواجهن ، تجرأن في الكلام وعدم الطوعية وأشياء من هذا القبيل .

((فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءً كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءً كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ)) اربط قوله ((لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ)) بقوله في الذي قبله ((وَبِخِيَارِكُمْ خِيَارِكُمْ لِنِسَائِهِمْ)) .

ثم ختم رحمه الله تعالى بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ)) ؛ وختم هذا الباب بهذا الحديث من جميل الختم ، وذلك إذا وفقَّ الرجل بالمرأة الصالحة في دينها وخلقها وعبادتها وأيضاً صالحة في عقلها ، لأن المرأة إذا صلحت في عقلها دبّرت أمر البيت أحسن تدبير ورتبت أموره أحسن ترتيب وهنأ الزوج بحياة معها أحسن هناءة ، فخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يُصلح لنا أجمعين شأننا كلّهُ ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يهدنا إليه صراطاً مستقيماً ، وأن يوفقنا لكل خير إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل . اللهم آتِ نفوسنا تقواها ، وزكّها أنت خيرُ من زكّاها ، أنت وليّها ومولاها .